النارنجة الذابلة فى الربيع

لفقيد الشباب والأدب المرحوم محمد الزهيرى

كانت لنا عند السباج شجيرة ... ألف الغناء بظلها الزرزور
طفق الربيعُ يزورها متخفياً ... فيفيض منها فى الحديقة نور
حتى إذا حل الصباح تنفست ... فيها الزهور وزقزق العصفور
وسرى إلى أرض الحديقة كلها ... نبأ الربيع وركبه المسحور

كانت لنا ... يا ليتها دامت لنا ! ... أو دام يهتف فوقها الزرزور

قد كنت أجلس صوبها فى شرفتى ... أو كنت أجلس تحتها فى ظلتى
أو كنت أرقب فى الضحى زرزورها
متهـــللا ينشى نوافـــذ حجرتى
طوراً ينقّـر فى الزجاج وتارة ... يسمو يزرزر فى وكار سقيفتى
فاذا رآنى طار فى أغرودة ... بيضاء واستوفى غصون شجيرتى
فتى يؤوب هتافه ؟ ومتى أرى ... نوّارك الثلجي يا نارنجتى ؟ !
ومتى أطير إليك ... ترقص مهجتى
فرحاً ... وآخذ مجلسى من شرفتى ؟ !

هيهات لن أنسى بظلك مجلسى ... وأنا أراعى الأفق نصف مغمض
خنقت جفونى ذكريات حلوتر ... من عطرك القمرى والنغم الوضى
فانساب منك على كليل مشاعرى ... ينبوع لحن فى الخيال مفضض
وهفت عليك الروح من وادى الأسى
لتصبّ من خمر الأريج الأبيض

هيهات ... لن أنسى ضحى (سبتمبر)
والنحل يغشى نورك المتـــلالى
ومساء مارس كيف يهبط تلة ... شفقية ... ممدودة الأظلال
تزل الحديقة تحت أرهام الندى ... وضفا عليك ممطر الأذيال
فهناك كم ذهبية شغفت بها ... روحى فتاهت فى مروج خيال

وهنا تحركت الشجيرة فى أسى ... وبكى الربيعَ خيالها المهجور
وتذكرت عهد الصبى فتأوهت ... وكأنها يـد الأسى طنبور
وتذكرت أيام يرشف نورها ... ربق الضحى ويزرزر الزرزور
وعرائس النارنج تحلم فى الندى ... فيرف فيها طيفه المسحور
وتذكرت عند (السباج) أزاهراً ... صفراء رفت فى ظلال الموسج
« زهر القطيفة » كيف خان عهودها
نسى الهوى من عطرها المتبلج
وتذكرت . فى رعشة لما سبا ... زرزورها منها ولم يتحرج
وهنا نشبت فى الشجيرة خلجة ... وبكت حنيناً للشذا المتأرج

وتذكرت شفقاً توهج حمرة ... خلل الغيوم على ربا الآصال
وبدت غصون الجزورين كأنها ... قلع ترفرف فى بحار خيال !

وهنا تحركت الشجيرة فى أسى ... وبكى الربيع خيالها المهجور
وتذكرت عهد الصبا فتنهدت ... وكأنها يـد الأسى طنبور

وتذكرت شجر النخيل وهدهداً ... قد كان يقصدها صباح مساء
وتذكرت فى اليوسفى يمامة ... كانت تنوح الليـــلة القمراء

وضفت على كل الغصون سحابة ... وزكا الغصين وفتّح النوار
وتهلل الزرزور فى أوراقها ... وزها السباج وفاحت الأعطار

حلمت بأرض فى الخيال سحيقة ... فى ذلك الأفق الغمى النـائى
خلدت إلى صمت هناك عميم ... تسجو عليه خوافق الأضواء
هى جنة الأشجار والأظلال والـ ... أعطار والأنغـام والأنداء

يتزاهر البشنين فوق شطوطها ... ويغازل الدفلى زهر اللوتس
وعرائس النارنج فاح عبيرها ... بالنخل تحلم فى السكون المشمس
وهنـاك زرزور يغرد دائماً ... ويقص أحلام الزهور النمس
يروى لهـا أسطورة سحرية ... مما يفوح به خيال النرجس

نارنجتى ! والله مذ فارقتنى ... وأنا حليف كآبة خرساء
أصبحت بعدك فى انقباض موحش
وكأننى منه مساء شـــتاء
تستشرف الأعطار فى آفاقها ... روحى إليك وراء كل فضاء
وترف فى دهليز كل أشعة ... قمراء أو ترنيمة بيضـــاء

قد كنت أرجو أن تكون نهايتى ... فى ظل هذا النور حيث أراك
ويكون آخر ما يخدر مسمعى ... زرزورك المتأنق فوق ذراك
ويطوف فى غيبوبتى فيفيقنى ... فجر قصير البعث من رياك
والآن إذ عجل القضاء فانمـا ... سيقوم فى الذكرى خيال شذاك

وسرى إلى أرض الحديقة كلها ... نبأ الربيع وركبه المسحور
كانت لنا ... يا ليتها دامت لنا ... أو دام يهتف فوقها الزرزور

محمد الزهيرى